الاخلاق القرآنية

الدكتور زهير الأعرجي / أميركا

ـ الحلقة الثالثة ـ

مقدمة:

تنطلق فلسفة العلاقة بين الإنسان والخالق سبحانه وتعالى، من فكرة تتعلق بالوجود والحياة، وتتلخص بقاعدة بسيطة هي ضعف المخلوق وضآلته وقوة الخالق وجبروته.. ولهذا صرّح الخالق عزّوجلّ في كتابه الحكيم، برجوع كل أمر اليه، وحاجة كل شيءٍ في الكون اليه، لأنه هو المدبّر لهذا الكون، المتصرّف فيه، الفعّال لما يريد، وهو الخالق البارىء المصوّر..

يقول تعالى: «... واليهِ يُرْجَعُ الأمْرُ كُلُّهُ، فاعْبُدْهُ وتَوَكَّلْ عليه...» (هود: ١٢٣).. فالتّوكل إذنْ؛ ظاهرة كونية طبيعية بين مخلوق متناهي الضعف، مسلوب القدرة، وبين خالق عزيز مقتدر.. وبعبارة مختصرة، فإنَّ التوكل هو تفويض الإنسان المؤمن جميع أُموره الى الله سبحانه وتعالى، مع ملاحظة أنَّ هذا التفويض لا يتعارض مع مفهوم السعي في الأرض الذي تؤكده الآيات القرآنية المتعددة.. بل ان

التوكل على الله سبحانه وتعالى يسدد عمل الإنسان، ويدفع سعيه الجاد الحثيث من أجل كسب لقمة العيش وبناء الأرض.. فالإنسان المتوكل إنما يطلب من الله سبحانه أنْ يسدد خطاه، وأنْ يرسم له الطريق المستقيم في الحياة، وكأنَّ الله عزَّوجلَّ هو الذي يتدخل بمشيئته الربانية في حياة ذلك الإنسان.. «... **وما رَمَيْتَ إذْ رَميتَ ولكنَّ الله رَمى...**» (الأنفال: ١٧).

ويرسم الإسلام صورة دقيقة لمعنى التوكل، عندما يربط بين إرادة الإنسان الخلاّقة وبين تفويض الأمور الحياتية الى الله سبحانه.. فيؤكد القرآن الكريم على ضرورة التأكيد على عزم وتصميم الإنسان، والى ضرورة ربط المسببات بالأسباب.. ولذلك عندما أهمل الأعرابي ناقته، وقال: توكّلت على الله. قال له النبي (ص): «**اعقلها وتوكل**».. أي أنَّ التوكل لايعني أنْ يفرط الإنسان في أعمال، فيجعلها تصل درجة الإنفلات.. اعقل وتوكل، أي اسعى وآجهد باليد والفكر، ثم توكَّل على الله فهو مسددك.. ويؤكد القرآن الكريم على مفهوم (اعقل)، مخاطباً المؤمنين: «... **خُذُوا حِذْرَكُمْ...**» (النساء: ٧١)، ويقول تعالى أيضاً في كيفية صلاة الخوف: «**...وَلْيأخُذوا حِذْرَهُمْ وَأسْلِحَتَهُمْ...**» (النساء: ١٠٢). «**وأعِدُّوا لَهُمْ ما آستَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِباطِ الخَيْلِ...**» (الأنفال: ٦١). وهكذا يصوِّر لنا القرآن الكريم ان التوكل على الله سبحانه لا ينفي بذل الإنسان كل ما يستطيع من جهد ومشقة لتحصيل ما يرمي الحصول عليه، بل انَّ التوكل هو الوسيلة التي يتوسل بها الإنسان ليضمن آستقامة الطريق الذي يسير عليه، فهو يوكِّل أمره الى الله ليهديه الى طريق واضح، ينكشف فيه نور الحقيقة والحياة المشرقة.. ولذلك حبَّب القرآن الكريم عملية توكل الإنسان على الله في أعماله، فيقول تعالى: «... **وَعَلى الله فَتوكَّلُوا إنْ كُنتُمْ مُؤمِنينَ**» (المائدة: ٢٣). «... **وعلى الله فَلْيَتَوكَّلِ المُؤمنون**» (آل عمران: ١٦٠). «... **إنَّ اللّهَ يُحِبُّ المُتَوَكّلينَ**» (آل عمران: ١٥٩). «... **ومَنْ يَتَوَكَّلْ على الله فَهُوَ حَسْبُهُ...**» (الطلاق: ٣). «... **ومن يَتَوَكَّلْ على الله فإنَّ اللّهَ عَزيزٌ حَكيمٌ**» (الأنفال: ٤٩). «**إنَّما النَّجوى مِنَ الشَّيْطانِ لِيَحْزُنَ الّذينَ آمنوا وليسَ بِضارِّهِمْ شَيْئاً إلاّ بإذْنِ الله وعلى الله فَلْيتوكَّلِ المُؤْمِنونَ**» (المجادلة: ١٠). «**الله لا إلهَ إلاّ هُوَ وعلى الله فَلْيَتوكَّلِ المُؤمِنونَ**» (التغابن: ١٣). «**فَما أُوتِيتُمْ من شَيءٍ فَمَتاعُ الحَياةِ الدُّنْيا، وما عِنْدَ الله خَيْرٌ وأبقى للَّذينَ آمنوا وعلى رَبِّهِمْ يَتوكَّلونَ**» (الشورى: ٣٦). «... **إنْ أُريدُ إلاّ الإصْلاحَ ما استَطَعْتُ وما تَوفِيقي إلاّ بالله، عَلَيهِ تَوكَّلْتُ وإليهِ أُنيبُ**» (هود: ٨٨).

أصول التوكل:

يلخِّص التاريخ معنى التوكل على الله سبحانه في واقعة فريدة من نوعها في التاريخ الإسلامي، وهي واقعة «أُحد» التي فتحت في المسلمين جُرحاً عميقاً، وذلك بعد أنْ عصا بعض المسلمين الله سبحانه وتعالى، فانهزموا وولوا الأدبار، وعصوا الرسول (ص) عندما أمرهم بالوقوف والثبات في موضع مهم، فلم

يطيعوه، وشاع في تلك الفترة بين الناس أنَّ الرسول محمد (ص) قد قُتِلَ، فقال بعض المتخاذلين: ليت لنا رسولاً الى (عبدالله بن أُبي) وهو رئيس المنافقين، فيأخذ لنا أماناً من أبي سفيان. يا قوم إنَّ محمداً قد قتل، فارجعوا الى قومكم قبل أنْ يأتوكم فيقتلونكم. قال أنس بن النضر: يا قوم؛ إنْ كان محمد قد قُتِلَ، فإنَّ رب محمد لم يُقْتَلْ، فقاتلوا على ما قاتل عليه محمد، أللهم؛ إني أعتذر اليك مما يقول هؤلاء، وأبرأ اليك مما جاء به هؤلاء، فشدَّ بسيفه، فقاتل حتى قُتِلَ.

في تلك الفترة العصيبة من تاريخ الرسالة، روَّج المنافقون الكثير من الإشاعات المحبطة للعزيمة، في محاولة لبث روح اليأس بين المؤمنين، فقالت الإشاعات إنَّ المشركين قد جمعوا وأعدوا، وإنَّ مصير المؤمنين القتل والفناء وهتك الأعراض.. في تلك الفترة الحرجة قدَّم الإسلام أول درس في معنى الإرتباط الروحي بالله سبحانه، فثبَّت قاعدة التوكل على الله سبحانه والإستعانة به والإعتماد عليه، خاصة في ظروف الشدة والمحنة، لأنَّ ما يتعلَّمه الإنسان في المحنة يسهل عليه ممارسته في اليسر والرخاء.. فيصف القرآن الكريم هذه الحالة وذلك الظرف وصفاً رائعاً.. يقول تعالى: «الَّذينَ قالَ لَهُمُ النَّاسُ إنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إيماناً وقالُوا حَسْبُنا اللهُ ونِعمَ الوكيلُ» (آل عمران: ١٧٣). والناس في الحالة الأولى، غير الناس في الحالة الثانية.. فالمراد بالناس في الحالة الثانية، هم المشركون الذين أرادوا إبادة المسلمين، وفي الحالة الأولى، هم المتخاذلون المثبطون، الذين كانوا يستخدمون مختلف الأساليب لتثبيط المؤمنين المقاتلين، وإخماد عزيمتهم لقتال المشركين.. إنَّ التوكل على الله سبحانه، إنما يرسّخ الايمان، ويثبّت الطمأنينة في قلب الإنسان المؤمن.. ولذلك يقول القرآن: «فزادهم إيماناً»..

والحقيقة ان السعي في الحياة يتطلب أسباباً طبيعية وأخرى روحية غيبية، أو نفسية كما يصطلح عليها الغربيون.. فالخوف والتهيب لاينتج إلاَّ عن شيء لا يفسَّر إلاَّ تفسيراً واحداً ألا وهو أختلال الحالة النفسية والشعورية للإنسان.. وكذلك الحزن وسوء الظن وفساد النية والطيش وغيرها من الأمور.. ولا شيء يصحح هذا الإختلال النفسي، والإضطراب الروحي غير التوكل على الله سبحانه وتعالى.. ولذلك يقول الباري عزَّوجلَّ: «... ومن يتوكَّلْ على الله فهو حَسْبُهُ إنَّ الله بالغُ أمره...» (الطلاق: ٣).

ويثبّت القرآن الكريم خمس صفات أساسية في شخصية الإنسان المؤمن، الواعي لحقيقة الإيمان، ومن هذه الصفات التوكُّل على الله سبحانه وتعالى.. يقول عزَّوجلَّ: «إنما المُؤمِنونَ الَّذينَ إذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلوبُهُمْ وإذا تُلِيَتْ عَلَيهِمْ آياتُهُ زَادَتْهُمْ إيماناً وعلى رَبِّهِمْ يَتوكَّلونَ * الَّذينَ يُقيمونَ الصَّلاةَ ومِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنفِقونَ * أولئِكَ هُمُ المُؤمِنونَ حَقّاً لَهُمْ دَرَجاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغفِرةٌ ورِزْقٌ كَريمٌ» (الانفال: ٢ ــ ٤). والصفات التي يتناولها القرآن الكريم هي: وجل القلب عند ذكر الله،

زيادة الايمان عند استماع آيات الله، التوكّل على الله، إقامة الصلاة، والإنفاق مما رزقهم الله سبحانه.. وقد روعي في ذكر هذه الصفات، الترتيب الذي بينها بحسب الطبع، فإنّ نور الإيمان إنما يشرق على القلب تدريجاً، فلا يزال يشتد ويضاعف حتى يتم ويكمل بحقيقته، فأول ما يشرق يتأثر القلب بالوجل والخشية إذا تذكّر بالله عند ذكره، وهو قوله تعالى: «إنما المؤمنونَ الذينَ إذا ذُكرَ اللهُ وجلتْ قلوبهم».

ثم لا يزال ينبسط الايمان ويتعرّق وينمو ويتفرع بالسير في الآيات الدالّة عليه تعالى، والهادية الى المعارف الحقة، فكلّما تأمّل المؤمن في شيء منها زادته ايماناً، فيقوى الايمان ويشتد حتى يستقر في مرحلة اليقين، وهو قوله تعالى: «واذا تُليت عليهم آياته زادتهم إيماناً».

وإذا زاد الايمان وكَمُلَ كمالاً، عرف عندئذ مقام ربه وموقع نفسه، معرفة تطابق واقع الأمر، وهو أنّ الأمر كله الى الله سبحانه، فإنه تعالى وحده هو الرب الذي اليه يرجع كل شيء، فالواجب الحق على الإنسان أنْ يتوكّل عليه ويتبع مايريده منه بأخذه وكيلاً في جميع مايهمه في حياته، فيرضى بما يقدر له في مسيرة الحياة، ويجري على ما يحكم عليه من الأحكام ويشرعه من الشرائع، فيأتمر بأوامره، وينتهي عن نواهيه، وهو قوله تعالى: «وعلى ربّهمْ يتوكلون».

ثم إذا استقر الإيمان على كماله في القلب، إستوجب ذلك أنْ ينعطف العبد بالعبودية الى ربه، وينصب نفسه في مقام العبودية وإخلاص الخضوع وهو الصلاة، وهي أمر بينه وبين ربه، وأنْ يقوم بحاجة المجتمع في نواقص مساعيهم بالإنفاق على الفقراء مما رزقه الله من مال أو علم أو غير ذلك، وهو أمر بينه وبين سائر أفراد مجتمعه، وهو قوله تعالى: «الّذينَ يُقيمونَ الصلاة ومما رزقناهم يُنفقون»[1].

وراعى الإسلام في مفهوم التوكل، إرادة الإنسان أيضاً، فوافق بين عزيمة الإنسان وتصميمه على عمل شيء، وبين التوكل على الله في تسديد ذلك العمل.. وهذا ما ذكّر الله به المؤمنين بعد غزوة «أحد»، مخاطباً رسول الله (ص): «فبِما رَحْمَةٍ من اللهِ لِنْتَ لَهُمْ، وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَليظَ القَلبِ لانْفَضُّوا من حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ واستغفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ في الأمر، فإذا عَزَمْتَ فَتَوَكّلْ على اللهِ إنَّ اللهَ يُحِبُّ المُتَوَكّلينَ» (آل عمران: ١٥٩). فالإرادة والتصميم الحازم هي الأساس في التوجُّه نحو العمل، وإنما يتوكّل الإنسان على الله سبحانه، بطلب تسديد العمل، وطلب النصرة والتوفيق.. فـ «التوكل هو أنْ ينكشف للعبد بنور الحق أنْ لا فاعل إلاّ الله، وإنّ كل موجود، من خلق ورزق وعطاء ومنع وغنى وفقر، وصحة ومرض، وحياة وموت... الى غير ذلك، منفرد بإبداعه وآختراعه هو الله تعالى لاشريك له فيه، وإذا آنكشف له هذا لم ينظر الى غيره، بل كان منه خوفه واليه رجاؤه، وبه ثقته وعليه اتكاله»[2]. والتوكل موقوف على أنْ يعتقد الإنسان إعتقاداً جازماً بأنْ لا موجود ولا محرّك إلاّ الله، وإنه لا حول ولا قوة إلاّ بالله، وإنّ له تمام العلم والقدرة على كفاية العباد، ثم شمول العطف والرحمة

والعناية بالناس، وإنه ليس وراء منتهى قدرته قدرة، ولا وراء منتهى علمه علم، ولا وراء منتهى عنايته عناية، فمن اعتقد ذلك إتّكل قلبه على الله، واطمأنت سريرته بذلك، كما قال سبحانه وتعالى: «... أَوَلَمْ تُؤمِنْ؟ قَالَ: بَلى! ولكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبي...» (البقرة: ٢٦٠).

ويقول الإمام الصادق (ع) في هذا الصدد: **من أعطي ثلاثاً لا يمنع ثلاثاً: من أعطي الدعاء أُعطي الإجابة، ومن أعطي الشكر أُعطي الزيادة، ومن أعطي التوكل، أُعطي الكفاية. أما تلوت كتاب الله عزّوجلّ: «ومن يتوكّلْ على الله فهو حَسْبُهُ»، و«لَئِن شَكَرْتُمْ لأزيدَنَّكُمْ»، «ادْعوني أَسْتَجِبْ لَكُم»**.

ويخاطب القرآن الكريم أولئك الذين يعتمدون على عباد أمثالهم، وينسون التوكل على الله سبحانه، فيذكّرهم بأنَّ الرزق والحياة والمصير والأقدار كلها بيد الله سبحانه، فيقول تعالى: «إنَّ الَّذينَ تَدْعونَ مِنْ دونِ الله عِبادٌ أَمْثالُكُمْ...» (الاعراف: ١٩٤). «... إنَّ الَّذينَ تَعْبُدونَ مِنْ دُونِ الله لا يَمْلِكونَ لَكُمْ رِزْقاً فابْتَغُوا عِنْدَ الله الرِّزْقَ واعْبُدُوه...» (العنكبوت: ١٧). «... ولله خَزائِنُ السَّماواتِ والأرضِ ولكِنَّ المُنافِقينَ لا يَفْقَهُونَ» (المنافقون: ٧). «ولَئِنْ سأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ والأرْضَ لَيَقُولُنَّ اللّهُ قُلْ أفرأيْتُمْ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ الله إنْ أرادَنِيَ اللّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَني بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكاتُ رَحْمَتِهِ، قُلْ حَسْبِيَ اللّهُ عَليهِ يَتوكَّلُ المُتَوَكِّلونَ» (الزمر: ٣٨). والآيات الكريمة المذكورة آنفاً تهاجم بشكل عام، الذين يجعلون لله أنداداً يقدمون لهم الولاء والطاعة، ويحسبون أنهم بولاء هؤلاء الأنداد إنما يستطيعون دفع السيئات والإبتلاءات ومصاعب الحياة.. وينسون أنَّ الأمر الأول والأخير بيد الله سبحانه، وإنَّ تقدير الأمور وتقسيم الأرزاق بيده عزّوجلّ، فَلِمَ الإعتماد على غيره، وهو القادر الحكيم، المقتدر الرازق، جبار السماوات والأرض؟.. إنَّ الذين لا يتوكلون على الله في أعمالهم هم بلاشك من الأخسرين أعمالاً، الذين خسروا الدنيا والآخرة، وليس لهم في الآخرة إلاَّ الحسرة والندم والعذاب..

ويذكر لنا القرآن الكريم قصة بني اسرائيل، وكيف أمرهم الله سبحانه وتعالى بالتوكل عند المواجهة، فنكلوا بموسى (ع)، وقالوا له إذهب أنت وربك فقاتلا إنّا ههنا قاعدون. وفي أمالي المفيد، بإسناده عن أبي حمزة عن أبي جعفر (ع) قال: لما انتهى لهم موسى الى الأرض المقدسة، قال لهم: «يا قَوْمِ ادخُلوا الأرضَ المُقَدَّسَةَ الّتي كَتَبَ اللّهُ لَكُمْ ولا تَرْتَدُّوا على أدْبارِكُمْ فتنقلبوا خاسرين» (المائدة: ٢١)، وقد كتبها الله لهم: «قالوا يا مُوسى إنَّ فيها قَوْماً جَبّارينَ وإنّا لن نَدْخُلَها حتى يَخْرُجوا مِنْها فَإنْ يَخْرُجوا مِنْها فإنّا داخِلونَ * قالَ رَجُلانِ مِنَ الّذينَ يَخافونَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِما ادْخُلوا عَلَيْهِمُ البابَ فإذا دَخَلْتُموهُ فَإنَّكُمْ غالِبونَ وعلى الله فَتَوَكَّلوا إنْ كُنْتُمْ مُؤمنينَ * قالوا يا مُوسى إنّا لَنْ نَدْخُلَها أبَداً ماداموا فيها فاذْهَبْ أنْتَ وَرَبُّكَ فَقاتِلا إنّا هُهُنا قاعِدونَ * قالَ رَبِّ إنّي لا أمْلِكُ إلاّ نَفْسي وأخي فافْرُقْ بيننا وبينَ القَومِ الفاسِقينَ» (المائدة: ٢٢ ــ ٢٥). فلما أبوا أنْ يدخلوها، حرَّمها الله عليهم، فتاهوا في أربع

فراسخ في الأرض، مدة أربعين سنة. والمعنى المستفاد في هذا الموضع ان التوكل على الله سبحانه، أمر ضروري في ساعات الشدة والمواجهة،لأنه يعطي الإنسان المؤمن بريقاً من الأمل، ويجعله يعيش المفهوم الحقيق للحياة وهي أنَّ أمور العالم والناس راجعة الى خالق، قدير، حكيم، بيده مقدرات كل الأمور.. وهذا هو معنى التوكل على الله.. فهو الإعتماد على تلك القدرة الغيبية الجبارة، تلك القوة المهيمنة على السماوات والأرض.. حيث تعجز قدرة الإنسان المحدودة من الوصول الى آفاق أوسع في المحيط الذي يعيش فيه..

ويشير القرآن الكريم الى أنَّ التوكل على الله سبحانه هو جزء من طاعته عزَّوجلَّ، فالتوكيل هو «إقامة الإنسان غيره مقام نفسه في إدارة أموره، ولازم ذلك قيام إرادته مقام إرادة موكله، وفعله مقام فعله، فينطبق بوجه عام على الإطاعة، فإنَّ المطيع يجعل إرادته وعمله تبعاً لإرادة المطاع، فتقوم إرادة المطاع مقام إرادته، ويعود عمله متعلقاً لإرادة المطاع، صادراً منها اعتباراً، فترجع الإطاعة توكيلاً بوجه عام، كما أنَّ التوكيل إطاعة بوجه عام.

فإطاعة العبد لربه، إتّباع إرادته لإرادة ربه، والإتيان بالفعل على هذا النمط، وبعبارة أخرى إيثار إرادته وما يتعلق بها من العمل على إرادة نفسه وما يتعلق بها من العمل. فطاعته تعالى فيما شرَّع لعباده وما يتعلق بها نوع من التوكل عليه، وطاعته واجبة لمن عرفه وآمن به، فعلى الله فليتوكل المؤمنون، وإياه فليطيعوا، وأما من لم يعرفه ولم يؤمن به فلا تتحقق منه طاعة»[5]. ولذلك جاءت الآية القرآنية الكريمة لتؤكد هذا المعنى.. يقول تعالى: «**اللّهُ لا إلهَ إلاّ هُوَوعلى الله فَلْيتوكّلِ المُؤْمِنونَ**» (التغابن: ١٣).

ويذكر القرآن الكريم أنَّ التوكل على الله إنما هو إرجاع أمر تدبير الأمور والحياة اليه، وانه هو مسبب الأسباب، وينتهي اليه كل سبب.. أما الإنابة فهي الرجوع الى حكم الله تشريعاً في كل واقعة يستقبلها الإنسان في مسيرة حياته.. وقد جاء التوكل والإنابة في موضع واحد، حيث يقول سبحانه وتعالى: «**وما اخْتلفتُمْ فيهِ مِنْ شَيءٍ فَحُكْمُهُ إلى الله، ذٰلِكُمُ اللّهُ رَبّي عليهِ تَوَكّلْتُ واليهِ أنيبُ**» (الشورى: ١٠)، والمعنى: وهو كلام محكي للنبي (ص): «**إني أرجع في جميع أموري الى الله سبحانه تكويناً وتشريعاً**».. وكذلك يحث الله سبحانه وتعالى رسوله الكريم (ص) على التوكل عليه، فيقول تعالى: «**وتَوَكّلْ على الله وكفى بالله وَكيلاً**» (الاحزاب: ٣).

إذن؛ فالتوكل هو أحد الأسباب المتعلّقة بالله سبحانه وتعالى، المكملة للأسباب الطبيعية المألوفة، فالإنسان يسعى لإنجاز العمل بكل طاقته، وتسديد ذلك العمل يبقى على الله سبحانه، ولذلك فان التوكل على الله أمر ضروري في حركة الإنسان في الحياة، لأنها ترسّخ العلاقة الحميمة بين المخلوق الضعيف والخالق الجبّار..

مفهوم التوكل والخوف من المستقبل:

يخاف الإنسان في أحيان كثيرة مما يخبىء له القدر، فتراه يخاف المستقبل ويخشاه، لأنه يراه لغزاً، وعنصراً لا يضمن له حياته الرغيدة

الهائلة.. هذا الخوف من المستقبل ينبع من مفهوم عدم الثقة بتلك القدرة الغيبية التي تستطيع أنْ تغيِّر الأحداث، وتمحو المستقبل، لتستبدله بواقع جديد.. تلك هي قدرة الله سبحانه وتعالى..

إنَّ المفهوم القرآني لطبيعة الحياة الإنسانية، يستند على حقيقة في غاية الوضوح، وهي أنَّ الله سبحانه وتعالى بيده مقدرات كل شيء، وانَّ الذي يتقي الله سبحانه، ويدين له بالعبودية والطاعة، فإنَّ الخالق عزَّوجلَّ سوف يفتح له آفاقاً رائعة في مستقبل حياته، ويجعل له أبواباً من الرزق لم يكن ليحسبها يوماً في حياته، ومن يتوكل على الله سبحانه، فإنَّ الله سيكفيه مؤنة الحياة، ويرزقه ما يجعل حياته نعيماً وهدوءاً وسكينة.. وفي هذا المعنى يقول القرآن الكريم: «... وأقيموا الشَّهادةَ لله، ذٰلِكُمْ يُوعَظُ به مَنْ كانَ يُؤْمِنُ بالله واليَومِ الآخِرِ، ومَنْ يَتَّقِ اللّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ، ومَنْ يَتَوكَّلْ على اللّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ، إنَّ الله بالِغُ أمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللّهُ لِكُلِّ شَيءٍ قَدْراً» (الطلاق: ٢ ــ ٣). والمعنى ان الله سبحانه وتعالى سوف يكفي من يتوكل عليه، لا على غيره، وإنَّ الله بالغ أمره، يبلغ حيث أراد، وهو القائل: «إنَّما أمْرُهُ إذا أرادَ شَيئاً أنْ يَقولَ له كُنْ فَيَكونُ» (يس: ٨٢). «... قَدْ جَعَلَ اللّهُ لِكُلِّ شَيءٍ قَدْراً» (الطلاق: ٣)، فما من شيء إلاَّ له قدر مقدور، وحد محدود، والله سبحانه لا يحدّه حد ولا يحيط به شيء، وهو المحيط بكل شيء.. فالحاضر والمستقبل بيد الله سبحانه، ومن يخش الله ويخافه ويتوكل عليه، فإنَّ المستقبل المشرق للإنسان المؤمن مضمون عند الله سبحانه..

ويؤكد القرآن الكريم على أنَّ الخالق عزَّوجلَّ يملك غيب السماوات والأرض، وإن ما من شيء في السماوات والأرض إلاَّ راجع اليه، وإن ما من أمر في أرجاء الكون الواسع إلاَّ رادٌّ اليه، ولذلك فهو جدير بالعبادة، وجدير بالإعتماد والتوكل عليه.. يقول تعالى: «ولله غَيْبُ السَّماواتِ والأرضِ وإليهِ يُرْجَعُ الأمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وتَوكَّلْ عَلَيه وما رَبُّكَ بِغافِلٍ عَمّا تَعْمَلونَ» (هود: ١٢٣).

ويبلور القرآن الكريم مفهوماً رائعاً، في وقت يتلّوى المسلمون فيه من آثار المعاناة والتشريد والهجرة والحروب مع المشركين.. هذا المفهوم الرائع هو أنَّ الإساءة التي تصيب العدو يجب أنْ لا تسر الإنسان المؤمن، وكذلك الحسنة التي تصيب العدو يجب أنْ لا تسوء الإنسان المؤمن.. لأنَّ الولاية والأمر بيد الله سبحانه، وليس للإنسان من الأمر شيء، ولذلك يقول تعالى: «ما أصابَ مِنْ مُصيبةٍ في الأرضِ ولا في أنْفُسِكُمْ إلاّ في كتابٍ مِنْ قَبْلِ أنْ نَبْرَأها إنَّ ذٰلِكَ على الله يَسيرٌ * لِكَيْلا تَأسَوْا على ما فاتَكُمْ ولا تَفْرَحُوا بِما آتاكُمْ...» (الحديد: ٢٣). «ما أصابَ مِنْ مُصيبَةٍ إلاّ بِإذْنِ الله ومَنْ يُؤْمِنْ بالله يَهْدِ قَلْبَهُ» (التغابن: ١١). وكان شعور المنافقين ان غنيمة المسلمين وظفرهم تسوؤهم، وإنَّ القتل والجرح الذي يصيب المسلمين يفرحهم، فيقولوا: لقد احترزنا عن الشرِّ وأمنَّا القتل والأذى.. يقول القرآن الكريم في هذا المعنى: «إنْ تُصِبْكَ

حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وإنْ تُصِبْكَ مُصيبَةٌ يَقولوا قَدْ أخَذْنا أمْرَنا مِنْ قَبْلُ ويتولّوْا وهُمْ فَرِحونَ * قُلْ لَنْ يُصيبَنا إلاّ ما كَتَبَ اللّهُ لنا هُوَ مَوْلانا وعلى اللهِ فَلْيَتوكّلِ المُؤمنونَ» (التوبة: ٥٠ ــ ٥١). والمعنى أنّ حقيقة الأمر لله وحده، فهو الذي كتب حتمية ما يصيبنا من خير أو شر، وإذا كان الأمر كذلك فعلينا آمتثال أمره.. وإذا كان الأمر لله وحده فعلينا أنْ نتوكّل عليه ونرجع الأمر اليه.. فهو القادر على تثبيت الأمور، وهو الناصر وهو الولي، وعليه فليتوكل المؤمنون..

* * *

إنّ القلق النفسي والإضطراب الروحي الذي تعيشه البشرية «المتحضرة» اليوم، إنما مردّه ضعف العامل الإيماني في نفس الإنسان، فالإنسان المؤمن يتوكّل على الله سبحانه في أعماله، وفي حركاته، فتطمئنّ روحه، وتتثبت سرائره، ويترسّخ الإستقرار في شخصيته ونفسه، لأنه يؤمن أنّ عليه أنْ يسعى ويجدّ، وما وراء ذلك فهو على الله سبحانه «واليه يرجع الأمر كله».. فالتوكّل على الله سبحانه أفضل وسيلة لمعالجة الأمراض النفسية التي تفتك بالبشرية اليوم، فإذا ما علمنا أنّ الموت بيد الله سبحانه وتعالى: «نَحْنُ قَدَّرْنا بَيْنَكُمُ المَوْتَ وما نَحْنُ بِمَسْبُوقينَ» (الواقعة: ٦٠)، وإنّ الرزق بيده عزّوجلّ: «اللّهُ الّذي خَلَقَكُمْ ثُمّ رَزَقَكُمْ ثُمّ يُميتُكُمْ ثُمّ يُحْييكُمْ...» (الروم: ٤٠)، وان النفع والضر بيد الله سبحانه: «قُلْ لا أمْلِكُ لِنَفْسي نَفْعاً ولا ضَرّاً...» (الأعراف: ١٨٨)، فَلِمَ لا يتوكل الإنسان على الله سبحانه، والله بيده كل هذه الأمور، وما الذي بقي بيد الآخرين، إذا كان الموت والحياة والرزق والنفع والضر بيده سبحانه؟.. إذن فالتوكل على الله سبحانه ضمان أكيد على سكينة النفس وآطمئنانها لخطوط المستقبل الآتية بلا ريب..

التوكل والطريق الشائك:

في حياة الإنسان أياماً صعبة شاقة، فيها الكثير من الأشواك.. أياماً يضطهد فيها الإنسان لدينه أو عقيدته أو إيمانه.. أياماً تكون فيها عقيدة الإنسان على المحك، فيختبر ويمحّص، وهذه هي سُنّة الحياة.. إختبارات، فاختبارات، فاختبارات..

وليس أمام الإنسان المبتلى في دينه إلاّ آختياران: اما البقاء وتحمل مصاعب العمل، والإكتواء بنار التعذيب والفتنة.. واما الهجرة الى ديار أخرى، حيث الأمن والطمأنينة، حيث ينطلق الإنسان من جديد ليتحرّك على نطاق الدعوة الى الله سبحانه، والعمل الجاد لتثبيت أُسس الدين وعقيدة التوحيد.. وهذا ما آختاره المسلمون الأوائل في هجرتهم الى الحبشة، وهجرتهم الثانية الى المدينة.. يقول تعالى: «والّذينَ هاجَروا في اللهِ مِنْ بَعْدِ ما ظُلِموا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ في الدُّنيا حَسَنَةً ولأجْرُ الآخِرةِ أكْبَرُ لو كانوا يَعْلَمُونَ * الّذينَ صَبَروا وعلى ربِّهِمْ يَتَوكّلونَ» (النحل: ٤١، ٤٢). فالتوكل والصبر والهجرة في سبيل الله، أمور على الإنسان أنْ يضعها في حسابه عند الدخول في دائرة الإيمان والإسلام،

لأنّ عقيدة التوحيد تربّي الإنسان دائماً على المعاناة والشدة، فتصوغه صياغة جديدة، فيها الكثير من صفاء السريرة، ونقاء الضمير..

ويذكر لنا القرآن الكريم ان النعمة التي أنعم الله بها علينا، وهي نعمة الإيمان والهداية، تستوجب منا نحن البشر أنْ نتوكل عليه سبحانه، وأنْ نصبر على أذى المشركين، في سبيل الدعوة اليه.. يقول سبحانه وتعالى في حديث عن قوم موسى (ع): «**قالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إنْ نَحْنُ إلاّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ولكِنَّ على مَنْ يَشاءُ من عِبادِهِ، وما كانَ لنا أنْ نَأتِيَكُمْ بِسُلْطانٍ إلاّ بإذْنِ اللهِ وعلى الله فَلْيتوكَّلِ المُؤْمنونَ * وما لنا ألاّ نتوكَّلَ على الله وقَدْ هَدانا سُبُلَنا، ولَنَصْبِرَنَّ على ما آذَيْتُمُونا وعلى الله فَلْيتوكَّلِ المُتوكلونَ**» (ابراهيم: ١١ ــ ١٢).

والمعنى: انه إذا كان من الواجب أنْ نتوكل عليه ونحن مؤمنون به وقد هدانا سبلنا فلنصبرن على أيذائكم لنا في سبيل الدعوة اليه متوكلين عليه حتى يحكم بما يريد و يفعل مايشاء من غير أنْ نأوي في ذلك الى ما عندنا من ظاهر الحول والقوة.

وفي موضع آخر يصف القرآن الكريم، حالة المجتمع خلال نزول الرسالة الإسلامية ويجملها.. إنها كانت أمة كافرة بالرحمن، أمة جاحدة لنعمة الله.. وما على الرسول إلاّ أنْ يتوكل على الله ويبلّغ رسالة السماء، فلعل الله هادي تلك الأمة الكافرة.. يقول تعالى: «**كَذلِكَ أرْسَلْناكَ في أُمّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِها أُمَمٌ لِتَتْلُوا عَلَيْهِمُ الّذي أوْحَينا إليكَ وهُمْ يَكْفُرونَ بالرَّحمنِ قُلْ هُوَ رَبّي لا إلهَ إلاّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وإليه مَتابِ**» (الرعد: ٣٠)، فالتوكل على الله سبحانه قرينة لكل المصاعب والمشاق التي يتحمّلها الرسول في تبليغ رسالته الى الناس.. فذكر الله والإعتماد عليه سبحانه، بلسم يشفي النفوس المتعبة من: أذى الناس، وجحودهم، وجهلهم..

وفي معركة بدر، والموقف الصعب الهائل، حيث الفئة القليلة المؤمنة تجابه الفئة المشركة، القوية العدة، الكثيرة العدد.. كانت هناك فئة من قريش أسلموا بمكة وآحتبسهم آباؤهم، وآضطروا الى الخروج مع المشركين الى بدر حتى إذا حضروها وشاهدوا ما عليه المسلمون من القلة قالوا: مساكين هؤلاء غرهم دينهم، فأجابهم القرآن ان التوكل على الله سبحانه، هو الذي يمنح الإنسان المؤمن القوة والعزيمة، وإنَّ قوة المؤمن وثباته، إنما هي امتداد لإيمانه الراسخ بالله سبحانه وتوكله عليه.. يقول تعالى في هذا الصدد: «**إذْ يَقولُ المُنافِقونَ والّذينَ في قُلوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هؤُلاءِ دينُهُمْ ومَنْ يتوكّلْ على الله فإنَّ اللهَ عَزيزٌ حَكيمٌ**» (الأنفال: ٤٩).

وهكذا يعلّمنا القرآن الكريم ان التوكل على الله سبحانه في وسط الطريق حيث الأشواك والمعاناة والطريق الدامي، هو العنصر الأساسي في استمرار الدعوة لعقيدة التوحيد.. وان الصلة التي تصل الإنسان بالله سبحانه لابُدّ وأنْ تكون في أوثق ما تكون العلاقة به أيام المحن والشدائد.. وإنَّ المدَّ الآلهي للإنسان المؤمن هو أعظم عدّة يتسلح بها الإنسان في مواجهة الشرك والكفر والإلحاد.. «**قُلْ هُوَ الرَّحمنُ آمَنّا بِهِ وعليه**

«تـوكّـلـنـا فـسـتـعـلـمـونَ مَنْ هُوَ في ضَلالٍ مُبينٍ» (الملك: ٢٩).

مفهوم التوكل والسعي في الأرض:

حبّب الإسلام بشكل عام السعي في الأرض، وحبّب الجد والإجتهاد من أجل كسب لقمة العيش، وجعل العمل شكلاً من أشكال العبادة، وهذا ينسجم ويتلاءم مع السُّنَّة الكونية في الحياة، فالحيوانات تسعى وتكدح من أجل حبّات الطعام، والطيور تسعى منطلقة من أعشاشها في سبيل لقمة عيشها، وهكذا بقية الكائنات.. يقول تعالى: «**هُوَ الَّذي جَعَلَ لَكُمُ الأرضَ ذَلُولاً فامْشوا في مَناكِبِها، وكُلوا مِنْ رِزْقِهِ، واليه النُّشورُ**» (الملك: ١٥). «**فإذا قُضيتِ الصَّلاةُ فَانْتَشِروا في الأرضِ وابْتَغوا مِنْ فَضْلِ اللّهِ، واذْكُروا اللّهَ كَثيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحونَ * وإذا رَأَوْا تِجارَةً أوْ لَهْواً انفَضُّوا إليْها وتَرَكُوكَ قائِماً، قُلْ ما عِنْدَ اللّهِ خَيْرٌ من اللَّهو ومن التِجارة، واللّهُ خَيْرُ الرّازِقينَ**» (الجمعة: ١٠ ـــ ١١). فكأنَّ السُّنَّة الآلهية جعلت الأرض موضعاً مذلّلاً للإنسان، أنّى يسعى فانه يجد مجالاً للرزق وكسب لقمة العيش..

ولذلك فان الإسلام، لم يجعل مفهوم التوكل على الله، وسيلةً لانقطاع العمل، وعدم السعي باعتبار أنَّ الرزق آتٍ، فلم العمل؟.. بل أنَّ الله سبحانه وتعالى ربط بين العمل والتوكل على الله سبحانه.. لأنَّ السعي في الأرض يحتاج الى تسديد؛ وتوفيقٍ، وليس من يقوم بهذا التسديد غير الله سبحانه وتعالى..

ويؤكد الرسول الكريم محمد (ص)، في مفاهيمه الإسلامية الرائعة، أنَّ الرزق، وثمرات الأعمال، لاتأتي عبر: التمني، والتصور، ورسم الأحلام، بل تأتي بالعمل الجاد المخلص.. يقول رسول الله (ص): «**ليسَ الإيمان بالتّمني، ولكن ما وقر في القلب، وصدقه العمل، وإنَّ قوماً غرّتهم الأماني حتى خرجوا من الدنيا، ولا حسنة لهم، وقالوا: نحسن الظنَّ بالله، وكذبوا، لو أحسنوا الظنَّ لأحسنوا العمل**». فالتوكل إذن لابُدَّ وأنْ يُقرن بالعمل.. «**وقُلِ اعْمَلوا فَسَيرى اللّهُ عَمَلَكُمْ ورَسُولهُ والمُؤمِنونَ، وَسَتُرَدُّونَ إلى عالِمِ الغَيْبِ والشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنتُمْ تَعْمَلونَ**» (التوبة: ١٠٥).

ويقول العلامة النراقي في جامع السعادات: «إنَّ الشارع المقدس كلّف الإنسان بطلب الرزق بالأسباب التي هداه الله اليها، من زراعة، أو تجارة، أو صناعة، أو غير ذلك مما أحلّه الله، وبإبقاء النسل بالتزويج، وكلّفه بأنْ يدفع عن نفسه الأشياء المؤذية بالتوسل الى الأسباب المعينة لدفعها، وكما أنَّ العبادات أمور، أمر الله تعالى عباده بالسعي فيها، ليحصل لهم بها التقرب اليه والسعادات في دار الآخرة، فكذلك طلب الحلال، ودفع الضرر والألم عن النفس والأهل والعيال أمور أمرهم الله تعالى، ليحصل لهم بها التوسل الى العبادات وما يؤدي الى التقرب والسعادة. ولكنه سبحانه كلّفهم أيضاً بألاَّ يثقوا إلاَّ به، ولا يعتمدوا على الأسباب. كما انه سبحانه كلّفهم بألاَّ يتكلوا على أعمالهم الحسنة، بل على فضله ورحمته.

فمعنى التوكل المأمور به في الشريعة: إعتماد القلب على الله في الأمور كلها، وانقطاعه عمّا سواه، ولا ينافيه تحصيل الأسباب إذا لم يسكن اليها».

فالتكسب وطلب الرزق إذن، لا ينافي عملية التوكل على الله سبحانه.. بل أنّ طلب الرزق والسعي والتوكل على الله سبحانه من العبادات التي أمرنا القرآن الكريم بممارستها، خاصة وان الأرض قد ذلّلها الله سبحانه للبشرية، وما على الإنسان إلاّ أنْ يجدّ ويتوكل على الله، ليرى أنّ الأرض قد امتلئت بالأنهار، وان المروج قد امتلئت بالأشجار والأثمار، وان الأرض قد سادها العمران.. تضلّلها كلها عناية رب غفور رحيم..

أجر المتوكلين:

يتوجه الباري عزّوجلّ في خطاب حنون لعباده المؤمنين، مذكّراً إياهم بأنّ الأرض إذا ضاقت يوماً عن عبادته، فإنّ فيها متسعاً في مكان آخر، فليهاجروا الى حيث يعبد الله بحرية لأنّ أرض الله واسعة.. وان الجنان والجزاء العادل يوم القيامة للمؤمنين الصابرين المتوكلين على الله، الذين لا يرجون من هذه الدنيا غير رضا الله سبحانه.. يقول تعالى: «يا عِبادِيَ الذين آمنوا إنَّ أرْضي واسِعَةٌ فَإيّايَ فاعْبُدُونِ * كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ المَوْتِ ثُمَّ إلينا تُرْجَعونَ * والّذينَ آمنوا وعَمِلُوا الصالحاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ من الجنَّةِ غُرَفاً تَجري من تَحْتِها الأنهارُ خالدينَ فيها نِعْمَ أجْرُ العامِلينَ * الّذينَ صَبَرُوا وعلى رَبِّهِم يَتَوَكَّلونَ» (العنكبوت: ٥٦ ــ ٥٩).

ويذكر الله سبحانه وتعالى ان النعم المادية في الحياة منقطعة وغير دائمة، يتمتع بها الإنسان أياماً ثم تزول، و هذه غير نعم الآخرة التي تبقى مع الإنسان بقاءاً خالداً.. وليس هناك أجدر من الإنسان المؤمن المتوكل على الله سبحانه باكتساب هذه النعم التي لا يمكن أنْ يتصورها إنسان يعيش على هذه الأرض.. يقول تعالى: «فما أُوتيتُمْ من شَيءٍ فَمَتاعُ الحَياةِ الدُّنيا وما عندَ اللهِ خَيْرٌ وأبقى لِلّذينَ آمنوا وعلى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلونَ» (الشورى: ٣٦). «فأمّا الّذينَ آمنوا باللّهِ واعْتَصَموا به فَسَيُدْخِلُهُمْ في رَحمةٍ منهُ وفضلٍ ويَهْديهِمْ إليه صِراطاً مُسْتقيماً» (النساء: ١٧٥).

إنّ الحياة الإنسانية بكل أفراحها ومآسيها، لا يمكن أنْ تعطي الإنسان بُعداً ثابتاً قادراً على خلق المعجزات، لأنّ الإنسان تكوين هش ضعيف، لا يستطيع التحرك في أركان الحياة بدون الإعتماد والتوكل على ذلك الخالق، القادر، الجبار.. إنّ توكل الإنسان المؤمن على الله سبحانه، إنما هو باب من أبواب الفهم الحقيقي لقيمة الحياة.. وهو جسر يوصل الإنسان المؤمن بخالقه الكريم ليعينه على مصاعب الحياة الكبيرة وامتحاناتها المتواصلة.. ●

الهوامش

١ ــ «الميزان في تفسير القرآن» للعلامة المرحوم السيد محمد حسين الطباطبائي.

٢ ــ «جامع السعادات» للنراقي.

٣ ــ ظاهر السياق ان المراد بالمخافة مخافة الله سبحانه.

٤ ــ إنَّ النعمة إذا أُطلقت في عرف القرآن يراد بها الولاية الآلهية فهما كانا من أولياء الله تعالى.

٥ ــ «الميزان في تفسير القرآن» للمرحوم السيد الطباطبائي.

٦ ــ فهو حسبه: أي كافيه فيما يريده من طيب العيش ويتمناه من السعادة.

٧ ــ لنبوئنهم: من بوّأت له مكانا، أي سوّيت وأقررته فيه.

٨ ــ التبوئة: الإنزال على وجه الإقامة.